وصف المدن وحياة الشعوب في بلاد ما وراء النهر وكابول وغزنة والهند في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي (بابر نامه مصدرًا) دراسة في الجغرافيا التاريخيَّة

***أحمد محمد الجوارنة* ***

https://doi.org/10.35516/jjha.v20i1.3308

ملخص

تعدُّ مذكرات الملك المغولي "بابر" أحد أبرز المصادر التاريخية والثقافية لشعوب آسيا الوسطى وشعوب شبه القارة الهندية في القرن الخامس والسادس عشر الميلاديين، وقد جاءت في ثلاثة أجزاء؛ أوَّلها في فرغانة (أوزبكستان)، وشمل السنوات (899هـ/1493م – 909هـ/1503)، وثانيها في كابول (أفغانستان) 910هـ/1504م – 931هـ/1524م)، وثالثها في دلهي (الهند وباكستان)، (932هـ/1525م – 936هـ/1529م)؛ إذ باشر "بابر" في تدوين مذكراته بعد سنة 934هـ/1527م؛ أي بعد احتلاله للهند بسنة واحدة وتأسيسه للدولة المغولية (التيمورية) على عرش دلهي، وبعد ثلاثين سنة من بداية حكمه في فرغانة سنة 900هـ/1494م، واحتوت مذكراته على موضوعات سياسية واقتصادية واجتماعية وجغرافية كثيرة جدًّا. يعنينا في هذه الدراسة تسليط الأضواء على الناحية الجغرافية عبر وصف الملك المغولي "بابر" للمدن وحياة الشعوب في آسيا الوسطى وأفغانستان وباكستان والهند، في القرن السادس عشر الميلادي، وسوف تسعى هذه الدراسة إلى الإجابة عن العديد من التساؤلات، أهمها: ما طبيعة المدن التي انتشرت في بلاد ما وراء النهر وأفغانستان والهند؟ وكيف حظيت تلك المدن برعاية الأسر الإسلامية التي قامت على حكمها قُبيل فترة الدراسة؟ كما تسعى إلى الكشف عن أهمية تلك المذكرات.

الكلمات الدالة: بابر، الهند، أوزبكستان، المغول، سمرقند، قندهار.

المقدِّمة

دولة المغول المسلمين في الهند، التي تأسست سنة 933هـ/ 1526 وسقطت سنة 933هـ/ 1857م، واحدة من الدول التي تفرَّد ملوكها بالثقافة والأدب والمعرفة، إضافة إلى الوعي السياسي الذي جعل منهم ملوكًا مبدعين في مجال إدارة شؤون الحكم وتصريف الشؤون السياسية والإدارية والعسكرية في شبه القارة الهندية، الأمر الذي منحهم القدرة على تدوين مذكراتهم ويومياتهم، إما بأنفسهم أو بتكليف المؤرِّخين الرسميين في البلاط الملكي، فحفلت المذكرات بالمعلومات التاريخية المهمَّة في فترة زمنية حرجة من تاريخ المسلمين في آسيا الوسطى وأفغانستان وباكستان والهند، وهي مرحلة دقيقة ومضطربة ومتقلبة مليئة بالمخاطر والمغامرات عاشتها شعوب المنطقة في القرن الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين.

* قسم التاريخ والحضارة، كلية الآداب، جامعة اليرموك، الأردن.

تاريخ الاستلام: 2024/10/27، تاريخ القبول: 2025/3/12 .

©2026م عمادة البحث العلمي/الجامعة الأردنية. جميع الحقوق محفوظة.

أهميَّة الدراسة: تأتي أهمية الدراسة من أنها تتمحور حول مذكرات سياسية وتاريخية وجغرافية لأحد أبرز قادة المغول في تاريخهم الطويل، هو الملك "ظهير الدين محمد بابر"، الذي استطاع بذكائه وحنكته السياسية والعسكرية أن يبني إمبراطورية مغولية جديدة في الهند بعد ما كان قد فقد الأمل في العمل بالشأن السياسي لما تعرَّض له من ملاحقات قبائل الأوزبك ومطارداتهم في آسيا الوسطى، الذين لاحقوه للقضاء عليه وعلى طموحاته السياسية. ومن الناحية الأخرى تربعت مذكرات الملك بابر "بابرنامه" على عرش الكتب الأدبية والتاريخية والجغرافية في القرن السادس عشر الميلادي، وتفوَّقت عليها بمعلوماتها الغنية والتفصيلية حول مدن بلاد ما وراء النهر وأفغانستان والهند، فكشفت لنا عن واقع تلك المدن وتطوُّرها عبر مراحل حكم الأسرة التيمورية.

الدراسات السابقة: الدراسات التي اهتمت بتحليل مذكرات الملك المغولي "بابر نامه" ودراستها قليلة، وهي نادرة جدًّا باللغة العربية، وأهمها دراسة المستشرق الإنجليزي (William Erskine 1974) ، المعنونة بـِ تاريخ الهند تحت حكم الأسرة التيمورية، بابر وهمايون، وتاريخ الهند في حكم بابر، الذي أُلِّفَ عن الملك بابر عبر مذكرات الملك نفسه؛ حيث وظَّفها وأخرج كتاب تاريخ موسوعي في حياة ملك المغول ظهير الدين محمد بابر، وهناك دراسة للمستشرق الإنجليزي "ستانلي لينبول (Stanley Lane-Poole 1899)، في كتابه "حكام الهند، بابر، الذي نشره في أكسفور سنة 1899م، وقسَّمه إلى ثلاثة فصول؛ أوَّلها في تاريخ بابر في بلاد ما وراء النهر، وثانيها في تاريخ بابر في أفغانستان، وثالثها في تاريخ بابر في الهند، وكان مصدره الأساسي في إخراج مذكرات "بابر نامه". أما عمل المستشرقة الإنجليزية "أنيتا بيفرج "Annetta Beveridge" فهو ترجمة "بار نامه" إلى اللغة الإنجليزية ونشرتها للمرة الأولى في مدينة فرغانة الأوزبكية سنة 1912م، ولأهمية تلك الترجمة التي كشفت عنها حظيت باهتمام مراكز الدراسات ومؤسسات التعليم الكبرى، لتنشر المذكرات مرَّةً أخرى سنة 1914 في مدينة كابول؛ العاصمة الأفغانية، ثم في الهند سنة 1917م، ثم في لندن سنة 1922م، والنسخة التي اعتمدنا عليها في البحث هي من منشورات دلهي سنة 1970م؛ حيث جاءت "بابر نامه" في ثلاثة مجلدات و1040 صفحة، وكان لبيفرج مقدِّمة مهمَّة على المذكرات تناول فيها الصعوبات التي واجهها في الحصول على نسخ متعددة من المخطوطة لمقارنتها في أثناء الترجمة، وأخيرًا ما أنجزته المؤرِّخة الدكتورة "ماجدة مخلوف" بترجمتها للجزء الأول من مذكرات بابر، التي عُرِفَت بـ "وقائع بابري"، أو بابر على عرش فرغانة، ونشرتها في مصر سنة 2002، وهي النسخة الفريدة التي نُقِلَت إلى اللغة العربية.

منهج الدراسة: قامت الدراسة على تطبيق "المنهج التاريخي" لمعالجة نصوص مذكرات بابر نامه وإخضاعها لمنهج الوصف الجغرافي الذي تميزت به تلك المذكرات عن غيرها.

التعريف بـ"بابرنامه Babur Nama":

لم يكن "ظهير الدين محمد بابر" أول من ألَّف مذكراته من ملوك المغول، بل سبقه إلى تدوينها جدُّهُ الأمير "تيمورلنك 737هـ/ 1336 – 807هـ /1405م "، الذي ألَّف "ملفوظات تيموري"، باللغة التركية الجغطائية القديمة، ونقلها إلى الفارسية أبو طالب الحسيني، والنسخة الفارسية ترجمت إلى الإنجليزية على يد المؤرِّخ والمستشرق الإنجليزي "ميجور ستيورت Major Charles Stewart"، أحد أبرز أساتذة اللغات الشرقية في كليَّة شركة الهند

الشرقية؛ حيث نشرت في هولبرن ولندن سنة 1830م (Timur Lank 1830: 5).

قدَّم المؤرِّخ الإنجليزي "وليم إرسكن William Erskine"، في مقدِّمته على ترجمة مذكرات الإمبراطور المغولي ومؤسس الدولة المغولية "ظهير الدين محمد بابر"، "بابر نامه"، التي نشرها سنة (1238هـ/ 1821م)، معلوماتٍ حول النسخة الفريدة لـ "ملفوظات تيموري"، التي عثر عليها في مدينة بومباي الهندية وَعَدَّها عملًا كاملًا مترجمًا إلى اللغة الفارسية لـ "ملفوظات تيموري"، وهي نسخة أصلية من مقتنيات مكتبة "جعفر باشا" حاكم اليمن العثماني؛ حيث ظهرت تلك النسخة في رحلة "آستلي Astleys" سنة (1019هـ/ 1610م)، وهذا امر بالغ الأهمية أن نجد تاريخًا واضحًا على وجود النسخة الأصلية لـ"ملفوظات تيموري"، باللغة الفارسية، وهي النسخة التي ورد ذكرُها في مقدِّمة كتاب السلطان المغولي في الهند "شاهجيهان"، وهو الملك السادس في الأسرة التيمورية في الهند (1037هـ /1628م - 1069 هـ/ 1659م)، وهنا يؤكِّد المؤرِّخ الإنجليزي "ستيورت"، الذي نقل النسخة الفارسية إلى الإنجليزية، التي كُتبت بلغة فارسية واضحة؛ حيث يبدأ تاريخ "ملفوظات تيموري" منذ ولادة الأمير تيمورلنك سنة 736هـ/ 1336م، لتواصل اليوميات سردها لمراحل عهد تيمورلنك إلى سنة 777هـ/ 1375م، وهي أول خمسة وأربعين سنة من عمر تيمورلنك، بينما توقفت تلك اليوميات عن معالجة بقية الثلاثة والثلاثين سنة من عمر تيمورلنك (Timur Lank 1830: 6)، لأسباب لا نعرفها.

يبدو تأثُّرُ "ظهير الدين محمد بابر" بخطى جدِّه الأمير تيمورلنك واضحًا، سواء من الناحية السياسية والعسكرية، أو من ناحية الاهتمام بتدوين مذكراته الشخصية في سيرة حياته التي عاشها في أوزبكستان وأفغانستان وباكستان والهند، وقد عُرفت تلك المذكرات بمسميات مختلفة تحمل المعنى نفسَه، مثل "وقائع بابري" و"تزوك بابري" و"بابر نامه"، واشتُهرت تاريخيًّا باسم "بابر نامه"، ألَّفها باللغة التركية القديمة ونقلها إلى الفارسية المؤرِّخُ الهندي المسلم "خان خانان" سنة 999هـ/ 1590م بأمر من الملك المغول "جلال الدين محمد أكبر"، وهو رابع ملوك الأسرة التيمورية في الهند (963هـ/ 1556م - 1014هـ/ 1605م)، حفيد الملك "بابر"، وهي النسخة المترجمة التي اعتمد على نقلها إلى اللغة الإنجليزية المؤرِّخان الإنجليزيان وليم إرسكن William Erskine" و"جوهان ليدن"؛ حيث فرغا من ترجمة تلك المذكرات إلى الإنجليزية سنة 1826م (Elliot and Dowson 1986: 218).

جاءت ترجمة مذكرات الملك المغولي "بابر نامه" على يد المؤرِّخة الإنجليزية "آنيتي سوزانا بيفردج Suzana Beveridge"، ونُشرت هذه الترجمة في العديد من البلدان وفي أوقات مختلفة، المرة الأولى في مدينة فرغانة الأوزبكية سنة 1331هـ/ 1912م، وفي مدينة كابول العاصمة الأفغانية سنة 1332هـ/ 1914م، ثم في الهند سنة 1336هـ/ 1917م، وفي لندن سنة 1341هـ/ 1922م، وهي النسخة التي لقيت اهتمامًا أكبر لدى المؤرِّخين والباحثين المهتمين بدراسة مذكرات الملك المغولي "بابر" وسيرة حياته، وكذلك تاريخ آسيا الوسطى وأفغانستان وباكستان والهند؛ حيث شكَّلت مصدرًا تاريخيًّا فريدًا وموسوعيًّا لتاريخ المنطقة في القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي (الجوارنة 2024: 255–256).

وأخيرا، ترجمت المؤرِّخةُ المصريَّة "ماجدة مخلوف"، أستاذة التاريخ والدراسات التركيَّة بجامعة عين شمس، إلى اللغة العربيَّة الجزءَ المتعلِّقَ بتاريخ الملك المغولي "بابر"، الذي يتمحورُ حول حياته في أوزبكستان، وفي فرغانة على وجه التحديد، التي اعتلى عرشَها للمرة الأولى سنة 899هـ/ 1493م، وهو من الأجزاء الثلاثة من يوميات ملك المغول "بابر" ومذكراته، ومع ذلك هي الترجمة العربيَّة الوحيدة والفريدة غير المسبوقة؛ ما جعلها تغطي جانبًا تاريخيًّا مهمًّا وإضافة إلى المكتبة العربية التي تفتقرُ إلى مثل هذه الدراسات. وكلُّنا أمل، في أن تظهر ترجمة الأجزاء المتعلِّقة بتاريخ أفغانستان وباكستان والهند إلى اللغة العربيَّة؛ للكشف عن أحوال تلك المنطقة الذي تعرَّضت لتقلُّبات تاريخية

وأحداث عاصفة كان لها كبيرُ الأثر في تاريخ دول المنطقة وشعوبها.

تعدُّ مذكرات الملك المغولي "بابر" إحدى أهم المصادر التاريخية والثقافية لشعوب آسيا الوسطى وشعوب شبه القارة الهندية في القرن الخامس والسادس عشر الميلاديين، وقد جاءت في ثلاثة أجزاء؛ أوَّلها في فرغانة (أوزبكستان)، وشمل السنوات (899هـ/ 1493م – 909هـ/ 1503م)، وثانيها في كابول (أفغانستان) 910هـ/ 1504م – 931هـ/ 1524م)، وثالثها في دلهي (الهند وباكستان)، (932هـ/ 1525م – 936هـ/ 1529م)؛ إذ باشرَ "بابر" في تدوين مذكراته بعد سنة 934هـ/ 1527م؛ أي بعد احتلاله الهند بسنة واحدة وتأسيسه الدولة المغولية (التيمورية) على عرش دلهي، وبعد ثلاثين سنة من بداية حكمه في فرغانة سنة 900هـ/ 1494م. ورغم كثرة حروبه ومعاناته الشديدة في صراعه مع زعماء قبائل الأوزبك وتعرُّضه للأذى الشديد والمطاردة والمخاطر الكثيرة ودخوله في مراحل سياسية وعسكرية جديدة في أفغانستان وباكستان والهند كان على درجة عالية من النباهة في حفظ المعلومات واستحضارها حين راح يدوِّن تلك المذكرات التاريخية المهمَّة وكأنه يراها رأي العين، لا تفوته شاردة ولا واردة إلّا جاء على ذكرها وحرص على تدوينها، سواء أكانت حدثًا كبيرًا أم من صغائر الأحداث (خواندمير 1988).

وعبر قراءتنا للمهتمين بتاريخ الملك المغولي "بابر"، أمثال المؤرِّخ الإنجليزي "إرسكن Erskine" (William Erskine 1974)، والمؤرِّخ "لينبول Lane–Poole" (Lane-Poole 1976)، وكذلك المؤرِّخة "بيفرج Suzana Beveridge" والمؤرِّخة "مخلوف"، يتأكَّدُ أن مذكرات "بابر نامه" كشفت عن أسرار غامضة في تاريخ شعوب آسيا الوسطى وأفغانستان وباكستان والهند؛ ما جعلها تتفرَّد على معظم المؤرِّخين الذين اهتموا بتدوين تاريخ "بابر" والأسرة التيمورية حتى عَدَّ الباحثُ الهندي "أكار باتل" تلك المذكرات من السير الذاتية "Autobiography" الفريدة في العالم (Aakar Patel 2021).

استوعبت مذكرات "بابر نامه" تاريخ آسيا الوسطى وأفغانستان وباكستان والهند بجميع تفاصيله الدقيقة، فتحدَّث "بابر" حول حياة شعوب تلك البلدان وتاريخها، ومنها حديثه عن أسرته وقبيلته، وصراعه مع قبائل الأوزبك، والحروب التي خاضها في آسيا الوسطى وجنوب آسيا، ووصفه للمدن والقرى والأماكن التي مرَّ بها وعاش فيها، ولعادات ومراسم تلك الشعوب والقبائل وتقاليدها، يضاف إليها النظم السائدة من سياسية وإدارية وعسكرية، واهتمامها بجغرافية البلدان والمُناخ والحَيَوانات والنباتات بأنواعها المختلفة، وعادات الأتراك والأفغان والهنود في الأكل والطعام، ووصفه الآداب المرعية عند اللقاء والتحية والهدايا ومجالس اللهو وأزياء العصر وأنواع الرياضات العامة المنتشرة بين الناس، من مثل المصارعة والمبارزة بالسيوف والسباحة، واهتمامه بتراجم المئات من رجالات عصره، واستحضاره أسماء العشرات من السلاطين والعلماء والفقهاء والمحدِّثين والشُّعراء والفنانين و...، وما يهمنا في هذا المقام تسليط الأضواء على وصف الملك "بابر" لمدن أوزبكستان وأفغانستان وباكستان والهند، وهي: فرغانة، وسمرقند، وبدخشان، وإنديجان، وأوش، ومرغينان، وآسفره، وطشقند، وخُجندة، وأخسي، وهي جميعها واقعة في بلاد ما وراء النهر، التي تُعرف حديثًا ببلاد أوزبكستان، والمدن: كابول، وقندهار، وغزنة، وزابلستان تقع في بلاد أفغانستان الحديثة، أما مدن دلهي ولاهور والكجرات فتقع في الهند وباكستان. وننوِّهُ هنا إلى تعريفنا هذه المدن وتوضيحها من الناحية الجغرافية؛ ليسهل تَعَرُّفُها.

مدن أوزبكستان (بلاد ما وراء النهر):

تفرَّدت مذكرات الملك بابر "بابر نامه" في وصفها للمدن والقرى التي عاش بها ملك المغول ومرَّ عليها وشاهد معالمها وتفاصيلها الجغرافية، وهنا تبرز براعة "بابر" وذكاءه وهو يصف تلك المدن على نحوٍ دقيق، حتى لَيُعَدَّ عالمًا في الجغرافيا

والتضاريس الطبيعية، وإذا رجعنا إلى معاجم الجغرافيين العرب وغيرهم ممن زار مدن بلاد ما وراء النهر وأفغانستان والهند أو كتب عنها نجد "بابر" يتفوَّقُ عليهم، بل إنه قد كان أكثر منهم دقَّةً في الوصف وأكثر تفصيلًا لجغرافية تلك المدن؛ حيث تمكَّن من مسح مدن بلاد ما وراء النهر وسكانها؛ أوزبكستان، وأفغانستان، وباكستان، والهند مسحًا جغرافيًّا وطبغرافيًّا، فبدأ بحكم سيطرته العسكرية والسياسية على **مدينة فرغانة**، (420كم شرق طشقند العاصمة الأوزبكية)، وهي مسقط رأسه، بل وكانت مبتدأ نشاطه السياسي؛ إذ خصَّها ببداية الوصف والتعريف، فَعَدَّها جزءًا من الإقليم الخامس، أنها محاطةٌ بمدينة "كاشغر" (إحدى أشهر مدن تركستان الشرقية) من الشرق، وبسمرقند من الغرب، وببدخشان من الجنوب، ويتبع فرغانة مجموعة من مدن صغيرة، مثل: "الماتو" و"يانكي" المشهورة عند المؤرِّخين والجغرافيين العرب بـ"أوترار"، ويؤكِّد الملكُ "بابر" أن المغول والأوزبك خرَّبوا المدينة ولم يبق منها أثر للعمران والنشاط البشري، وَعَدَّ بابر ولاية فرغانة من الولايات الصغيرة مقارنةً مع غيرها من الولايات، وهي واقعةٌ في ناحية سمرقند وخُجَنده، وتخلوا ناحيتُها الغربيَّةُ من الجبال، وتعدُّ من المدن المحصَّنة التي لا تستطيع الجيوش احتلالها (Babur Nama 1970: I,1-2).

قسَّم الملك "بابر" ولاية فرغانة إلى سبع قصبات، خمس منها جنوب نهر سيحون، واثنتان شمال نهر سيحون، وهذه القصبات هي: "**أنديجان**"، وتقع إلى الجنوب من نهر سيحون، وهي عاصمة ولاية فرغانة، ومسقط رأس "بابر"، تقع في وادي فرغانة، فاكهتها كثيرة ومحاصيلها وفيرة، ففيها الشمام والعنب، وشمامها من أطيب الشمام، وفيها قلعة حصينة، لها ثلاثة أبواب، وهي من أكبر قلاع بلاد ما وراء النهر، وقد تعجَّب الملك "بابر" من دخول المياه إلى القلعة، فوجدها تدخل عبر تسع قنوات مائية جُهِّزَت لهذه الغاية، وحول القلعة يقع طريق طويل مرصوف بالحجارة، وكذلك خندق كبير، وهما يفصلانها عن الأماكن السكنية، وأهلها أتراك، وليس فيها من يجهل اللغة التركية، ولغة الحديث عندهم تناسب لغة الكتابة، وقد أشار "بابر" إلى أعمال الشاعر الجغطائي التركي المشهور "مير علي شيرواني"، الذي وُلِدَ في هيرات سنة 844هـ/ 1441م، وتوفي سنةَ 906هـ/ 1501م، وكان له دورٌ كبيرٌ في تطوير الأدب واللغة التركية في آسيا الوسطى، كما أُعجِبَ بجميلات أنديجان، وبالموسيقيِّ "يوسف خوجه"، الذي كان يعمل في خدمة "باي سنقر ميرزا"، وقد توفي خوجه سنة 838هـ/ 1434م، والخوجة تعني الأستاذ أو المعلِّم أو الشيخ، وتوقَّف "بابر" عند هواء أنديجان جاعلًا إياه ضارًّا بالصِّحَّة العامَّة، كما كثرت فيها الحُمّى في فصل الخريف (Babur Nama 1970: 1,2).

قصبة أوش: ثاني أكبر مدينة بعد العاصمة "بيشكيك" (تعداد سكان جمهورية قيرغيزستان، 2010م)، تقع في وادي فرغانة في قيرغيزستان جنوب شرق "أنديجان"، على مسافة أربعة فراسخ (20كم)، وكانت قديمًا مركزًا لطريق الحرير، وهي مدينة وفيرة المياه الجارية، وهواؤها عذب، وقد شيَّد السلطان محمود خان، وهو خالُ الملك "بابر"، قصرًا فوق جبل "براكوه"، وشيَّد "بابر" سنة 902هـ/ 1496م قصرًا ذا إيوان في مكان منحدر ومُتعرِّج فوق هذا الجبل، يقول "بابر": "والحق، وإن كان قصر السلطان محمود أكبر من قصري، فإن قصري في موقع أجمل، فكل المدينة والأحياء السكنية تبدو أسفل منه". وقد أشارت مذكرات "بابر" إلى وجود مسجد جامع في سفح الجبل يُسمى "الجوزاء"، له فناء وحديقة في غاية الروعة والجمال، يستريح فيها الضيوف والمسافرون، ولأهل المدينة عادات وتقاليد متميزة عن غيرهم، فمنها إذا غطَّ أحدُهم في نومه فإنهم يأخذون الماء من النهر ويسكبونه عليه، وقد ظهر في الجبل آنف الذكر حجر متموِّج بالأحمر والأبيض، وهو بديع الشكل، يستخدم في صناعة مقابض السكاكين والأحزمة (Babur Nama 1970: I,3).

قصبة مرغينان: تقع إلى الجنوب الشرقي من وادي فرغانة، وهي من المدن المهمَّة على طريق الحرير (Geonames.org)، وقد أبدعت مذكرات الملك بابر "بابرنامه" في وصف هذه المدينة الواقعة إلى الغرب من مدينة "أنديجان"، التي أُعجب "بابر" بمحاصيلها ورمانها وبرقوقها مؤكِّدًا روعتها، وبها نوع من الرُّمان يُسمونه "دانه كلان"، ومن شدَّة عجبه به وصفه بالحلاوة اللذيذة الخالية من الحموضة، كما فيها نوع من البرقوق يُسمونه "سيحاني"، يحشونه باللوز ويجفِّفوه للشتاء، وتكثُرُ فيها الطيورُ والغزلان البيضاء، وأهلُها من أرباب السيوف والمعارك، ولم يغب عن "بابر" ذكر العلامة الفقيه الشيخ "برهان الدين علي المرغيناني" (511هـ–1135م/ 593هـ–1197م)، صاحب كتاب الهداية في الفقه الحنفي، وهو من قرية تسمى "رشدان" من توابع مرغينان (Babur Nama 1970: 1,3)[1].

قصبة أسفره: مدينة قديمة، تقع في ما وراء النهر، شمال طاجيكستان، ومعظم سكانها من الطاجيك، والطاجيك سكانُ أوزبكستان الأصليون، إلّا أنهم يُعدّون من السلالات الفارسية الشرقية، بل ويتكلَّمون اللغة الفارسية، ويعيشون في طاجيكستان وأفغانستان واوزبكستان (Brasher 2011)، وهي من قصبات ولاية فرغانة، تقع على سفح الجبل، ومن أقدم مدن بلاد ما وراء النهر، وتقع حاليًّا في شمال طاجيكستان، ومعظم سكانها من الطاجيك (Geonames.org)، ويذكر "بابر" أن فيها مياه وينابيع جارية وبساتين كثيرة أكثرها من شجر الخوخ وشجر اللوز، وهي واقعة إلى الجنوب من "مرغينان"، على بُعد تسعة فراسخ (فارسية معرَّبة وتساوي 3 أميال)، وتتشكَّلُ قصبتُها من سفوح أربعة جبال، هي: "أسفره، وأروخ، وسوخ، ويؤكِّدُ "بابر" في مذكراته أنه جاء إلى سفوح "سوخ وأسفره" عندما التحق بالسلطان "محمد شيباني خان" الأوزبكي (906هـ/ 1500م – 916هـ/ 1510م)، وهو أحد خانات قبيلة الأوزبك الكبيرة والمنتشرة في أرجاء أوزبكستان، وقد هزم "السلطان محمود خان" (899هـ/ 1493م – 900هـ/ 1494م) وأخذ منه مدينتَي "طشقند (وهي عاصمة أوزبكستان حاليًّا، استولى عليها تيمورلنك سنة 1361م، وأعاد بناءها لتكون من أهم المدن التجارية الواقعة على تطريق الحرير)، وشاهرخية (من أقدم مدن بلاد ما وراء النهر، تقع إلى الجنوب الغربي لمدينة طشقند وتبعد عنها نحو 88كم)"، وقد عاش فيها الملك "بابر" في ضيق شديد مدَّة عام تقريبًا إلى أن غادرها إلى مدينة "كابول" (Babur Nama 1970: I,4).

قصبة خُجند (خُجنده): تبعد عن مدينة "أنديجان" إلى الغرب منها بنحو خمسة وعشرين فرسخا (125كم)، وتبعد عن مدينة سمرقند نفس مسافة، وهي من أقدم مدن بلاد ما وراء النهر، تزرع فيها الفواكه بأنواعها المختلفة، وقد وصفها "بابر" بفائقة الجمال، ويشتهر رمانها بمذاق طيِّب، ويطلقون على تفاح سمرقند "سيب سمرقند"، وعلى رمان خجند " أناري خجند"، ومال "بابر" إلى أن رمان "مرغينان" أجود أنواع الرمان في بلاد أوزبكستان، ولوز المدينة من الجَودة بمكان ما جعله يُصدَّرُ إلى الهند وهرمز وبلاد فارس، وفي المدينة قلعة كبيرة في مكان مرتفع، وينساب من شمالها نهر سيحون، وفيها جبل يُسمى" منوغل"، على وفرة كبيرة جدًّا من أحجار الفيروز والأحجار الكريمة المتنوِّعة، وتكثُرُ فيها الثعابين، وتتوفَّرُ على حَيَوانات الصَّيد كالغزال الأبيض، والديك البري، والأرانب، لكن أجواءها مُضِرَّةٌ بالصحة وتكثرُ فيها الحُمّى في الخريف، وهي تُصيب العصافير "حُمّى الطيور" (Babur Nama 1970: I,7-9,).

[1] العلامة الشيخ برهان الدين المرغيناني (511 –593هـ/ 1135–1197م)، صاحب كتاب "الهداية شرح نهاية المبتدي"، موسوعة في الفقه الحنفي، ومن أُمَّهات الفقه الحنفي، يقع في سبعة مجلَّدات، حقَّقه الأستاذ الدكتور سائد بكداش، وله مقدِّمة على الكتاب عرَّف فيها بحياة العلامة المرغيناني ومنهجه في كتابه الهداية، (المرغيناني 2019 ج1: 5–280)

قصبة "أخسي": مدينة من مدن فرغانة، جعلها "بابر" في مذكراته واقعة على الجانب الشمالي من نهر سيحون الشهير، والنسبة إليها "أخسيتك"، وإليها ينتسب الشاعر التركي المشهور "أثير الدين الأخسيتكي" (ت 608هـ/ 1211م)، وهو من شعراء القرن السادس الهجري (سامي 1888: 1، 780)، وهي واقعة إلى الغرب من "أنديجان"، وأورد "بابر" في مذكراته أن والده السلطان "عمر شيخ ميرزا" (870هـ/ 1460م–899هـ/ 1493م) اتخذ من هذه المدينة عاصمة له، ونذكر هنا أن "بابر" جاء على تدوين سيرة والده؛ حيث أفرد لها مساحة كبيرة، ووصفه وصفًا دقيقًا، ولم يجامل في ذلك، فوصف سلوكه وأخلاقه وأدبه وسياسته وعلمه وقراءاته ولباسه وأمراءه وولاته وكل ما يتعلّقُ بيوميات حياة والده (Babur Nama 1970: I,11)، وللمدينة نصيبٌ من نهر سيحون؛ حيث يجري تحت قلعتها الواقعة على حافة هوَّة عالية، وهي كالخندق تمامًا، وقد أضاف إليها والده حينما اتَّخذها عاصمة له أخاديد وحفر خارج القلعة، وذلك لغايات التحصين الجيِّد، ومدح "بابر" شمام "أخسي" وَعَدَّهُ طيِّبَ المذاق، وفيها أصنافٌ مختلفة من الشمام، منها نوع يسمونه "مير تيموري" لا نظير له في الدنيا، وهو أفضل بكثير من شمام بُخارى، وحينما احتل "بابر" مدينة سمرقند قال في ذلك: أمرت بإحضار الشمام من "أخسي" ومن "بخارى"، وأمرت بتقطيعه في أحد المجالس، ولا وجه للمقارنة بين شمام "أخسي" وأي شمام آخر"، كما توافرت المدينة على أنواع مختلفة من الحيوانات، ولا سِيَّما الصالحة للصيد، فكثر في صحرائها الغزلان البيضاء والغزلان العادية والديكة البرية والأرانب، وهي حَيَوانات سمينة جدًّا كما شاهدها الملك "بابر" (Babur Nama 1970: I,10-11).

قصبة "كاسان"(كاشان): مدينة من مدن ولاية فرغانه تكثرُ فيها الحدائق الغناء، وهي طيِّبة الهواء، تقع إلى الشمال من مدينة"أخسي" (Babur Nama 1970: I, 11-12).

وصف مدينة "سمرقند": من المدن المهمَّة في بلاد ما وراء النهر، اتَّخذها الأمير تيمورلنك عاصمة لمملكته، تقع على طريق الحرير، وقد عَدَّها الملك "بابر" في مذكراته أهم مدن بلاد ما وراء النهر وأنها عاصمة الإمبراطورية التيمورية، يقول فيها: "سمرقند مدينة جميلة، قلَّ أن توجد مدينة في الدُّنيا بجمالها، وهي عاصمة ولاية "ما وراء النهر"، وكانوا يُسمونها بـ "البلاد المحفوظة" لعجز العدو، مهما بلغت قوته وتفوقه، عن الاستيلاء عليها، دخلها الإسلامُ في عهد أمير المؤمنين عثمان بن عفان، وجاء إليها "قثم بن العباس" الصحابي المعروف، وقبره خارج باب "آهنين"، ويُعرف الآن باسم" مزار شاه" (الذهبي 1984 ج 3: 440–441)[2]، وهي المدينة التي أسَّسها الإسكندر الأكبر، وأقام فيها تيمور لنك عرشه، ولم يسبقه سلطان عظيم مثله في اتخاذ "سمرقند" عاصمة له، وقد أمر الملك "بابر" بقياس طول القلعة من فوق السور، فوجدوا أنَّ طولها يبلغ عشرة آلاف وستمائة خطوة، وكل أهل سمرقند سنيون، وهم أطهار المذهب، ملتزمون بالشريعة ومتديّنون، وظهر فيها من الأئمة الكثير، فمن علماء الكلام "الشيخ أبو منصور"، من حي "ماتريد" أحد أحياء "سمرقند"، يبدو أن الملك "بابر" قد اطَّلع على سير الكثير من العلماء، ولا سِيَّما علماء بلاد ما وراء

[2] الذهبي، شمس الدين محمد(ت748هـ/ 1374م)، سِيَر أعلام النبلاء، حققه شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة بيروت، لبنان، 1402هـ/1984م، ج 3، ص 440–441، هو قثم بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم، له صحبة مع الرسول، صلى الله عليه وسلم، وكان اخا الحسين بن علي من الرضاعة، وكان يشبه النبي، وهو قليل الرواية، سار أيام معاوية بن أبي سفيان مع سعيد بن عثمان إلى سمرقند فاستشهد بها،

النهر، ومنهم أبو منصور الماتريدي السمرقندي (238هـ / 333هـ)، مات عن عمر 95 عاما، الملقب بإمام الهدى والدين وإمام المتكلّمين، ورئيس أهل السُنَّة (المغربي 1995: 328–350)[3]، وأكَّد "بابر" أنَّ أئمَّة علم الكلام فرقتان: الماتردية، والأشعرية (نسبة إلى إمامها ومؤسسها أبي الحسن الأشعري "260هـ/74 8م–324هـ/ 936م" وهي مدرسة إسلامية سُنِّيَّة)، أما الماتردية فتأسست على يد الشيخ أبي منصور الماتردي، ويفتخر الملك "بابر" بأنَّ العلامة البخاري "خواجه إسماعيل "(194هـ/ 810م –256هـ/ 870م)

صاحب صحيح البخاري من بلاد ما وراء النهر، ويحق لـ"بابر " التفاخر بمثل هؤلاء الأعلام الذين ملأوا الدنيا علمًا ومعرفة، وكذلك صاحب كتاب الهداية في الفقه الحنفي من ولاية "مرغينان"، ولا يوجد في الفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة كتابٌ يفوق في قيمته كتاب "الهداية" (Babur Nama 1970: I,171).

اشتهرت مدينة "سمرقند"، وفق مذكرات "بابر نامه"، بالفواكه المتنوّعة، كالرمان والتفاح والشمام والعنب، وأكثرها شهرة "سيب سمرقند" التفاح السمرقندي، و"صاحب سمرقند"، والعنب السمرقندي، وأوضح بأن الثلوج لا تسقط في مدينة "سمرقند"، ومع هذا فإن شتائها بارد جدًّا، وتكثرُ فيها التكايا والحدائق التي أنشأها الأمير "تيمور لنك"، والأمير "أُلغ بيك"؛ حيث شيَّد "تيمور لنك في المدينة قصرًا كبيرًا يتكون من أربعة طوابق، اشتُهر باسم "كوك سراي"، كما ابتنى داخل القلعة جامعًا بالقرب من باب "آهنين"، وكانت الحجارة التي بني بها الجامع قد جلبت من الهند، وكتب أعلى الجامع آية قرآنية: "وإذ يرفع إبراهيم القواعد" (البقرة، 127)، ويؤكِّد "بابر" أنه يمكن قراءة الآية على مسافة فرسخ (3 ميل)، وهو بناء ضخم جدًّا، وأشارت "بابرنامه" إلى الحديقتين اللتين بُنِيَتا شرق مدينة سمرقند؛ حديقة "باغ بولدي"، وحديقة "باغ دلكشاه"، وقد شُقَّت طريقٌ من هذه الحديقة إلى "باب فيروزة"، غُرِسَت على جانبيه أشجار الحور، كما شيَّد قصرًا كبيرًا في "دلكشاه" جعل على جدرانه صُوَرَ حروب تيمورلنك في بلاد الهند، وذكرت "بابر نامه" حدائق أخرى شيَّدها الأمير "تيمور لنك"، مثل: حديقة " باغ جنار"، جنوب سمرقند، وحديقة "باغ شمال"، وحديقة "باغ بهشت"؛ أي روضة الجنَّة، وفيها مدرسة يعود إنشاؤها إلى عهد السلطان "محمود ميرزا بن جهانكير ميرزا" (899هـ/ 1493م–900هـ/ 1494م)، كما يوجد في القلعة كل قبور أولاد "تيمورلنك" الذين اعتلوا عرش مدينة سمرقند (Babur Nama 1970: I,172,173).

وهناك حدائق جميلة أشارت إليها "بابر نامه"، أنشأها الأمراء في عهد السلطان "احمد ميرزا "(873هـ/1468م – 899 هـ/1494م)، وهي حدائق غناء وبساتين كثيرة وجميلة، منها "حديقة جار باغ"، أنشأها "درويش محمد أرخان"، ومن المباني الكبيرة التي جاءت على ذكرها "بابر نامه" "المرصد الفلكي" المكوَّن من ثلاثة طوابق على تلّ "كهك"، وبداخله آلة كتابة الزيج، وقد أشاد السلطان "أُلغ بيك" (850هـ/ 1447م–853هـ/ 1449م)، وهو حفيد تيمورلنك، (Lane-Poole

[3] المغربي، علي عبد الفتاح، الفرق الكلامية الإسلامية: مدخل ودراسة، القاهرة، 1415هـ/ 1995م، ص 328–350، وتنسب المدرسة المتردية إلى أبي منصور الماتريدي (ت333هـ/ 944م)، وتسمَّت باسمه، وهو يُعدُّ المؤسس للاتجاه الكلامي في المذهب الحنفي، وامتد آثار هذه المدرسة في أنحاء عديدة من البلاد الإسلامية، بل وامتد أثرها إلى العصر الحديث، وللماتريدي تلاميذ كُثر، منهم: أبو القاسم الحكيم السمرقندي (ت 342هـ/ 951م)، تولى قضاء سمرقند، وأبو الحسن الرستغفني، وعبد الكريم بن موسى البزدوي (390هـ/ 999م)، وأبو عصمة بن أبي الليث البخاري، وهو من أقران الحكيم السمرقندي. وللماتريدي مؤلفات كثيرة، منها التوحيد، وكتاب المقالات، وكتاب بيان وهم المعتزلة، وكتاب تأويلات القرآن، وكتاب رد وعيد الفساق، ورد الأسئلة الخمسة للباهلي، ورد الإمامة لبعض الرافضة، وكتاب الرد على أصول القرامطة، وكتاب مأذنة الشرائع في أصول الفقه، وكتاب الجدل في أصول الفقه. (انظر أيضًا أبو منصور الماتريدي السمرقندي (د.ت.)؛ *كتاب التوحيد*، تحقيق بكر طوبال أوغلي ومحمد آروشي، إستنبول: مكتبة الإرشاد، بيروت: دار صادر، 9–16).

(1905 ، بهذا المرصد "الزيج الجرجاني"، الذي رتبه "خواجة نصير الدين الطوسي" (597هـ/ 1201م–672هـ/ 1274م)، وهو عالم فلكي ورياضياتي وطبيب وفيزيائي في مدينة "مراغة"؛ أيام الأمير "هولاكوخان" (654هـ/ 1256م–664هـ/ 1265م)، مرصد فلكي سنة 657هـ/ 1259م) (الزِّركلي 2002 ج7: 30) وتظهر هنا ثقافة "بابر "حينما راح يتحدث عن نشوء المراصد الفلكية؛ حيث رجَّح أن الدُّنيا رُتِّب بها أكثر من سبعة أو ثمانية مراصد، أحدها يرجع إلى الخليفة العباسي المأمون (170هـ/ 786م–218هـ/ 833م)، وَسُمِّيَ بـ "الزيج المأموني"، كما رَتَّبَ "بطليموس" مرصدًا، وأقاموا في الهند مرصدًا، وهو المرصدُ الذي ما زال يعمل في الهند وقت احتلال "بابر" لها (Babu Nama 1970: I,176-177). لم يتوقف "بابر" عن مدح سمرقند بوصفها المدينة الأكثر أهمية في بلاد ما وراء النهر، بل جعلها مدينة من أجمل مدن العالم، وفيها ما يميزها عن بقية المدن؛ إذ اتَّخذت للتجار حوانيت خاصة بهم، فلكلِّ تاجر حانوت، ولا يختلط التجار ببعضهم بعضًا، وفيها صُنّاع الخبز "الخبّازون"، والطهاة المحترفون الشجعان، وتنتج المدينة أجود أنواع الورق في الدُّنيا، وكل لوازم ورق الجوز تأتي إليها من "كان كل"، الواقعة على ضفاف نهر "قره سو" ويُسمّى بماء الرحمة، ويصنع فيها المخمل الأسود، ويلقى هذا النوع من القماش رواجًا في سائر انحاء الدُّنيا (Babur Nama 1970: I,177). وتتحفنا مذكرات "بابرنامه" بأسماء الأمراء الذين تولوا إدارة شؤون مدينة سمرقند؛ حيث منحها الأمير تيمورلنك إلى ابنه "جهانكير ميرزا"، ومنه إلى ابنه السلطان "محمد جهانكير" (899هـ/ 1493م–900هـ/ 1494م)، ومنه إلى الأمير "شاه رخ ميرزا" (807هـ/ 1404م–850هـ/ 1447م)، ثم انتقلت إدارتها إلى الأمير "عبدالله ميرزا"، حفيد "شاه رُخ ميرزا"، ثم إلى "السلطان أبو السعيد ميرزا" (855هـ/ 1452م–872هـ/ 1467م)، وتنازل عن عرشها في حياته لابنه "السلطان أحمد ميرزا" (872هـ/ 1467م–899هـ/ 1493م)، ومن بعده "السلطان محمود ميرزا" (899هـ/ 1493م–900هـ/ 1494م)، ثم الأمير "باي سنغر ميرزا"، ثم السلطان" علي ميرزا" (902هـ/ 1496م–903هـ/ 1497م)، إلى أن آلت لحُكم الملك بابر (Lane-Poole1905: 263-281; Babur Nama 1976: I,183,184)[4].

مدن كابول وغزنة وقندهر (أفغانستان):

أما مدينة كابول، عاصمة أفغانستان، فمن أقدم مدن أفغانستان، كانت مركزًا للديانة الزردشتية والديانة البوذية، وفتحها الملك المغولي "بابر" في شهر "ربيع الثاني 910هـ/ تشرين الأول 1504م"، دون أيَّة مقاومة تُذكر من سكانها، وكذلك مدينة غزنة والقصبات التابعة لها. وقد أسهبت مذكرات "بابر نامه" في وصف مدينة كابول الأفغانية وصفًا ينمُّ عن وعي وثقافة ومعرفة ودراية كبيرة كان يتمتع بها الملك "بابر"؛ إذ حرصت مذكرات "بابر نامه" على وصفها وصفًا دقيقًا مفصَّلًا يؤكِّدُ عبقرية الملك "بابر" في وصفه للأماكن والمدن والطبيعة الجغرافية، فمن شرقها مدينة لامغان،

4 (Babur Nama 1976: I,183,184)، حكمت الأسرة التيمورية بلاد ما وراء النهر عبر مدينتي بخارى وسمرقند، وجاء ترتيب سلاطينهم وفق المؤرخ (لينبول Lane-Poole) على النحو الآتي:

I . الأمير تيمورلنك 771هـ/ 1369م، السلطان خليل بن تيمور 807هـ/ 1404م، السلطان شاه رخ 807هـ/ 1404م، السلطان ألغ بيك 850هـ/ 1447م، السلطان عبد اللطيف 853هـ/ 1449م، السلطان الأمير عبدالله 854هـ/ 1450م، الأمير أبو السعيد 855هـ/ 1452م، الأمير محمود 899هـ/ 1493م، ثم جاءت الأسرة الشيبانية التي انقسمت إلى حكومتين؛ واحدة في بخاري، وسلاطينها هم: عبد العزيز 947هـ/ 1540م، ويار محم 957هـ/ 1549م، وبرهان سلطان 961هـ/ 1553م، وعبدالله الذي ضم إليه حكومة مدينة سمرقند 964هـ/ 1556م، أما الأسرة الشيبانية التي حكمت سمرقند، فهي: السلطان خسرو خان 968هـ/ 1560م، والسلطان سعيد 975هـ/ 1567م، والسلطان جوفان مرد علي 980هـ/ 1572م (Lane-Poole 1976 :263-281).

وغربها مرتفعات جبال الغور، ومن شمالها مرتفعات جبال الهندوكوش، وجنوبها ننجرهار، لوغار ووردك، وتناول الحديث عن سور مدينة كابول، الذي بلغ وفق "بابر نامه" أربعة أميال بشكله الدائري، كما أُحيط بالسور العديد من الحدائق الغناء الجميلة (Babur Nama 1970: ii, 202)، ولم تنسَ المذكرات الحديثَ عن أهميَّة مدينة كابول التجارية، فذكرَ أنها تتمتع بمركز تجاري مهم ومميَّز يربط الهند بخراسان والصين وأوروبا (الروم)، وذكر الملك المغولي ما يقوله العرب والهنود عن غيرهم من الأمم والشعوب، فقال: إنَّ العرب في الجزيرة العربية يطلقون على غيرهم العجم، بينما يطلق الهنود على غيرهم الخرسانيين (نسبة إلى إقليم خراسان)، وحدَّدت المذكرات طريقان تجاريان مهمان يربطان الهند بخراسان، هما: طريق كابول، وطريق قندهار، وأن تجارة كابول من أفضل التجارة في المنطقة وأكثرها انتشارًا؛ حيث وصلت تجارتها إلى بلاد الخطا (الصين)، وبلاد الروم (أوروبا)، ويعبر أسواق مدينة كابول في كل عام ما بين 8–10 آلاف حصان محمَّلة بضائع من الهند على شكل قوافل تجارية منظمة، وكذلك تصل من الهند قوافل تجارية، من 10–20 ألف رأس من الخيول محمَّلة بالبضائع المختلفة، مثل: العبيد والملابس والأقمشة البيضاء وحلوى السُكر ومشتقّات السُكر والجذور العطرية (Babur Nama 1970: ii, 202).

أما مناخ مدينة كابول فوصفتها مذكرات "بابر نامه" بالحارة والباردة، باختلاف موقع المدن والحواضر القريبة من قصبة المدينة، فثمَّة مناطق لا تتساقط فيها الثلوج، ومناطق لا تذوب عنها الثلوج، وهذا المناخ خلق منها أرضًا قابلة للزراعة في موسم الشتاء والصيف، فهناك فاكهة شتوية وصيفية، واشتُهرت المدينة بالكثير من أنواع الفاكهة، كالعنب، والمشمش، والتفاح والرُمان، والسَّفرجل، والكُمَّثرى، والخوخ، والبرقوق، والجوز، وهناك البرتقال الذي كان يُجلب إلى أسواق كابول من مدينة "لامغان"، وكذلك الأترج، وحلوى السُكر، كما يُجلب العسلُ الجيّدُ من مناطق قريبة، كمدينة غزنة، وهنا تدخل مداعبات "بابر" الأدبية حينما راح يتحدث عن عنب كابول ونبيذها الذي يسكر العقول، مشيرًا إلى أن أفضل أنواع النبيذ هو من منتجات "خواجه خومند سيد"، وقال بذلك شعرًا، ما معناه: "طعم النبيذ يعرفه الشارب، وما هي فرصة الرجال الأقوياء بإتقانها" (Babur Nama 1970: ii, 203).

وبخصوص وصف "بابر نامه" لطبائع سكان مدينة كابول حاضرة بلاد الأفغان، فقد أشارت إلى التنوُّع العرقي الواضح لسكان المدينة، وهذا التنوُّع جعل منها مدينة متميّزة على غيرها من المدن الأفغانية الأخرى، بل والمدن التركية أيضًا، ففي المدينة يعيش العديد من القبائل العربية، وهي التي جاءت مع الفتح الإسلامي المبكِّر للمنطقة، وقبائل الأتراك، الذين جاؤوا إليها من آسيا الوسطى، وقبائل الباشي (Pashai) (تعود بأصولها العرقية إلى السلالة الهندية الآرية، يعيشون شرق أفغانستان ويتمركزون في لامغانوننكرهار، وهم من قبائل البشتو) (Ovesen 1984)، وقبائل الطاجيك، وهم من إقليم الطاجيك (طاجيكستان)، وقبائل البيركي (Birki) قبائل أفغانية، وهناك قبائل تقطن المناطق الواقعة على الجبال الغربية لمدينة كابول، كقبائل الهزارا (وهي مجموعة عرقية تعيش في أفغانستان، ومنها لافي إيران في مدينة مشهد، وفي مدينة كويتا الباكستانية يتكلَّمون اللغة الدارية، وهي اللغة القومية الثانية في أفغانستان بعد البشتو) (Emadi, Hafizullah 1997)، ومن هؤلاء من يتكلَّم اللسان المغولي، أما المناطق الواقعة إلى الجنوب من مدينة كابول فهناك قبائل الكفار (كافرستان)، وقبائل الخيتور والجبريك، وهي قبائل تعيش في أفغانستان (Babur Nama 1970: ii,204)، وأما اللغات المنتشرة في مدينة كابول، التي ألقت مذكرات "بابر نامه" اهتمامها عليها نتيجة التنوُّع العرقي، فهي اثنتا عشر لغة كان الناس يتحدَّثون بها؛ العربية، والفارسية، والتركية، والمغولية، والهندية (السنسكريتية)، والأفغانية، والبشتو، والبارجي، واللمغاني، والجبري، والبيركي، وهذه اللغة كانت لغة

"بابر"، الأمر الذي جعلها مدينة تميَّزت على غيرها من بقية المدن، من حيث التنوُّع العرقي واللُّغوي والثقافي في منطقة آسيا الوسطى والهند (Babur Nama 1970: ii, 205).

وعن التقسيمات الإدارية لمدينة كابول وولايتها قسَّم "بابر" هذه الحاضرة إلى سبعة عشر ولاية؛ حيث أسهب في الحديث عنها، وتحدَّث عن جغرافيتها وطبائع سكانها وعاداتهم وتقاليدهم وجبالها وأنهارها ووديانها ومراعيها ومحاصيلها ونباتاتها وفاكهتها، ويعنينا في هذه الدراسة الوقوف على أسماء تلك الولايات الإدارية التي تتبع مدينة كابول، وهي: ولاية باجور، وولاية سواط، وولاية هاشنكير، وولاية لامغان، وولاية ننجرهار، وولاية سافيدكو، وولاية سرخ رد، وولاية أدنبور، وولاية علي شانك، وولاية لانجار، وولاية كافرستان (نورستان)، وولاية وادي النور، وولاية كونار، وولاية بانجشير، وولاية غور بند، وولاية لوهكار، وولاية غزني (Babur Nama 1970: ii, 207-218)، وتحدَّث "بابر" عن جبال كابول المحيطة بها وضواحيها، فذكر منها مرتفعات جبال خوست، وبدخشان (الواقعة حاليًّا في أفغانستان، وغالبية سكانها من الطاجيك)، وتكثر فيها أشجار السرو والبلوط، وإلى الغرب من كابول هناك مرتفعات وادي زندان ووادي كرزوان، وغارجستان، يضاف إليها مرتفعات جبال الغور والهزارا والكارنود (Babur Nama,ii,222)، واوضحت مذكرات "بابر نامه" حجم العوائد المالية التي تجنيها مدينة كابول سنويا، سواء من الأراضي الزراعية البعلية أو المروية، وأن عوائد مدينة غزنة بلغت ثمانية "لاك" (ثمانية آلاف) شاهرخي، وهي العملة الرسمية للدولة المغولية (Babur Nama 1970: ii, 221).

احتل "بابر" **مدينة غزنة** مع مدينة كابول، التي تقع إلى الجنوب من كابول، وهي عاصمة الأسرة الغزنوية التي تسمَّت بها، ومن أهم المراكز الثقافية والآداب في العالم الإسلامي، تبعد عن كابول 130كم، قد طاف "بابر" في أرجائها وقال إنها مشهورة عند الأفغان باسم "زابلستان"، وأن البعض يجعل من غزنة مدينة تابعة لها، وهي إلى الغرب من مدينة كابول، وهذه المدينة تقلُّ فيها الأراضي الزراعية بسبب وعورة أراضيها، وحبَّب إليه عنبها وجعله أفضل من عنب كابول، وكذلك بطيخها طيِّب المذاق، وتفاحها حلو لذيذ يصدر إلى الهند، ومقارنة مع كابول فإن أسعارها رخيصة وفي متناول الجميع، وأغلب سكانها يعتنقون المذهب الحنفي، وهم مسلمون ملتزمون، ومنهم من يصوم ثلاثة أشهر متواصلة، ومعيشتهم هم وعوائلهم متوسطة المستوى (Babur Nama 1970: ii, 218)، ولما جاء لزيارة ضريح السلطان محمود الغزنوي، وهو السلطان الذي كان "بابر " يفتخر به وبإنجازاته في مجال الفتح الإسلامي في ربوع الهند، والضريح موجود في ضاحية تُسمّى الرَّوضة، وفيها مقابر وأضرحة أسرة محمود الغزنوي، استغرب "بابر" أشد الاستغراب من هذه المدينة، التي تؤوي كبار زعماء الأسرة الغزنوية، وهي الأسرة التي ظهر منها خمسة سلاطين كبار، منهم مؤسسها السلطان سبكتكين (366هـ/ 976م–387هـ/ 997م)، والسطان محمود الغزنوي (388هـ/ 998م–421هـ/1030م)، الذي أرسى قواعد الحكم الإسلامي في الهند فاتحًا بلدانها وناشرًا الإسلام في ربوعها، وقد حكمت هذه الأسرة مائة وخمسة وخمسون سنة (390هـ/ 1000م – 545هـ/ 1155م) (Qazwini 1913, pp. 351-388)، ومن غزنة انطلق في فتح البلدان، معتبرًا إياها مدينة متواضعة لا تليق بتلك الأسماء المجيدة التي سطَّرت أروع الملاحم التاريخية، كما أشاد بدور السلاطين الغزنويين في بناء السدود والجسور والقناطر، وأن السلطان محمود ابتنا واحدًا منها في غزنة بارتفاع 40–50 ياردة، ونوَّه إلى حجم الدمار الذي تعرَّضت له المدينة على يد السلطان "علاء الدين الغوري "(544هـ/ 1149م – 556هـ /1161م) مؤسس الدولة الغورية الأفغانية في الهند، وفاتح حاضرتها مدينة دلهي، وحينما احتلَّ مدينة غزنة في عام (550هـ/ 1152م) أحرق أضرحة الغزنويين وتدمَّر معظم معالمها (Babur Nama 1970: ii, 218, 219).

وصف الهند و(باكستان):

الهند بالنسبة إلى الملك المغولي "ظهير الدين محمد بابر"، عالمٌ غريب وعجيب، وكلُّ ما فيها بالنسبة إليه شيء جديد، سواء من حيث البيئة الجغرافية أو السكان أو الثقافات والأديان وأنواع النباتات المختلفة، وهي مختلفة تمامًا عن ثقافة آسيا الوسطى وطبيعتها التي انبثق منها ذلك الزعيم الكبير، فوجدها بلادًا واسعة وكبيرة وممتدَّة، مليئة بالسكان، وغنية بالمنتجات الصناعية والزراعية وغيرها، وقد شنَّ عليها ملك المغول خمسَ حملات عسكرية منطلقًا من مدينة كابول، تحدَّث عنها بإسهاب كبير في مذكراته "بابرنامه"، ورسم حدودها؛ حيث يحيط بها من الغرب المحيط الهندي وبحر العرب، ومن الشمال مرتفعات جبال الهندوكوش وكشمير وكافرستان (بلاد الصين)، ومن الشمال الغربي يحدُّها كابول وغزني وقندهارفي أفغانستان، ومدينة دلهي هي حاضرة أقاليم الهند جميعًا، وأنها منذ وفاة السلطان "شهاب الدين الغوري (599هـ/ 1203م – 602 هـ/ 1206م"، وحتى آخر عهد السلطان "فيروز شاه تغلق المتوفى سنة (633هـ/ 1235م – 634هـ/ 1236م)"، فأن أغلب أقاليم الهند كانت خاضعة لسطلة سلاطين دلهي (Babur Nama 1970: iii, 480-4981)، ومن المثير للاهتمام أن "بابر" كشف لنا عن واقع الهند السياسية، وعن حكّامها من المسلمين وغير المسلمين الذين كانوا يعاصرونه، قائلًا إنهم خمسة، منهم ثلاثة من غير المسلمين، أما الحكام المسلمون فهم: "السلطان بهلول لودي (855هـ/ 1451م–894هـ/ 1488م)، الذي سيطر على "جانبور" منتزعًا إياها من "السلطان حسين الشرقي" 863هـ/ 1458م – 905هـ/ 1500م) حاكم "جونبور"، بينما خضعت مدينة دلهي لحكم "السلطان علاء الدين عالم خان سيِّد" (790هـ/ 1388م)"، أما ثاني السلاطين المسلمين فهو "السلطان محمد مظفر" (917هـ/ 1511م – 933هـ/ 1526م) حاكم ولاية الكجرات، وأما ثالثهم فالأسرة البهمنية التي حكمت ولاية الدكن جنوب الهند (748هـ/ 1347م – 933هـ/ 1526م)، ورابعهم أسرة السلطان محمود حاكم ولاية "مالوا" وحاضرتها "ماندو Mandu"، من الأسرة التركية الخلجية الأفغانية، وخامس الأسر المسلمة الحاكمة في الهند من الأسياد، حكمت ولاية البنغال تحت سيادة "نصرت شاه"، الذي حكمها ما بين (925هـ/ 1518م . 939هـ/ 1532م)، واشتهرت أسرته باسم "حسين شاهي"، وأما الحُكام غير المسلمين، فهم:" راجا Raja" حاكم "جيبور"، وهي في ولاية الدكن، و"رانا سنجا Rana Sanga" حاكم مقاطعة "تشيتور Chitur"، و"مدني راو Midni Rao" في مقاطعة الدكن أيضًا، ويؤكِّد "بابر" في مذكراته أنه يوجد العديد من الراجوات والرايس في العديد من المقاطعات الهندية، منهم من أعطي الولاء للدولة الإسلامية، ومنهم من لم يعطِ ولاءه للمسلمين بسبب بعد المسافة (Babur Nama 1970: iii, 481-484).

أما عن عالم الحَيَوانات في الهند فقد أسهبت مذكرات "بابر نامه" في وصفها بشيء من التفصيل، لتخرج على هيئة موسوعة في عالم الحيوان والطيور والأسماك، وكأن الملك المغولي في وصفه هذا خبير في علم الحَيَوان وعالمه المختلف؛ إذ بدأ في التعريف بأشهر حَيَوانات الهند، وهو عالَم الفيلة، التي هي غريبة عن شعوب آسيا الوسطى التي جاء منها "بابر"، فَعَدَّهُ أهمَّ حَيَوانات الهند وأكثرَها شهرة، والهنود يطلقون عليه اسم "هاتي"، وتتواجد في مناطق معيَّنة من الهند، وهي تتوافر بكثرة في: "كالبي Kalpi"، و"كاره Karrah"، و"مانكبور Mankpur"، وجميعها تقع في الأقاليم الغربية من الهند، وفي "مانكبور" تحديدًا كانت معظم القرى التابعة لها وعددها على وجه التقريب 30–40 قرية، كلها تتوفَّر فيها الفيلةُ بكثرة، وصفها "بابر" بأنها تمتلك بعض الحكمة، فإذا ما تحدَّث معها سائسُها فإنها تفهم عليه وتنفذ أوامره في الحال، وللفيل معدة ضخمة، فهو يأكل أكثر من جملين، ويحمل أثقالًا كبيرة، ويعبر الأنهار بسهولة ويُسر، وهو حَيَوان جيِّدٌ لحمل السلاح والمقاتلين في الأماكن التي تكثرُ فيها مياه الأنهار (Babur Nama

1970: iii, 488-489)، وهناك وحيد القرن (Rhinoceros)، وهو من الحَيَوانات الضخمة التي تعيش في الهند، يبلغ حجمه حجمَ ثلاثة جواميس كبيرة، وتوجد في نهر السند، و"غابة هاشنكار"، على ضفاف نهر "سارو Saru"، وهناك بقر الجواميس البرية "Wild – Buffalo"، عَدَّهُ "بابر" من الحَيَوانات الشرسة المدمِّرة وغير الأليفة، وهي أكبرُ حجمًا من الجواميس الأليفة، وهناك الثيران الزرقاء "Blue – Bull"، وهي أشبه بالخيول، كما يوجد في الهند الخنازير، والغزلان، والغزلان الصغيرة، والقرود، وتسمّى عند الهنود بـ" بندر"، وتصدِّرها الهند إلى البلدان المجاورة، وأكثر ما يستخدمها البهلوانيون لتسلية جمهور الناس، تعيش أكثرها في مناطق "باجور"و" ميمن"، وتنتشر في الهند الفئران ويُسمونها بـ " كلهاري galahari"، وهناك الطواويس "Peacock"، حتى سُمِّيت الهند بأرض الطاووس، وتوجد في "كونور Kunur "، ويوجد في "باجور" "Parrot" الببغاء، وهي بأشكال وألوان مختلفة، وهناك البوقلمون "Chameleon"، وَسُمِّيَ بهذا الاسم لكثرة الألوان التي تغطي جسده من رأسه حتى ذيله، والحجل أو الدُّرج "Partridge"، وطائر السُمّان "Quail"، والطيور البرية بأنواعها المختلفة، والحباري الهندي "Indian Bustard"، واللقلق، والبزق الأبيض، وأنواع كثيرة من الدجاج، كدجاج" شاه مرغ"؛ أي الدجاج الملكي، وطيور العقعق، والبومة "Owl"، والشُقراق، وهي طيور متوسطة الحجم وذات منقار حاد، كما تحدَّثت مذكرات "بابر نامه" عن الحيوانات البحرية، وأغلبها التي تعيش في مياه الأنهار والبحيرات، ولعلَّ أن "بابر" لم يتمكَّن من الوصول إلى البحر لمعرفة أسرار حَيَواناته (Babur Nama 1970: iii, 488-503).

كما أفرد "بابر" في يومياته مساحة كافية للحديث عن الفاكهة التي كانت تشتهر في زراعتها الهند، منها المانجو التي عَدَّها أشهر وأطيب أنواع الفواكه في الهند، وهي الفاكهة الأكثر تقديمًا على موائد السلاطين والقادة الكبار، وكذلك فاكهة الموز، والتمر هندي، والعنب الأسمر، وفاكهة الكاكا، والليمون والبرتقال والأترج، وجوز الهند (النارجيل)، والنخيل، وأورد "بابر" مجموعة كبيرة لأسماء فاكهة نادرة، ذكرها بأسمائها في اللغة السنسكريتية (الهندية)، والفارسية والتركية والعربية، ووجدنا صعوبة بترجمة أسماء الفاكهة من اللغة السنسكريتية إلى العربية، كما تحدَّث عن الأزهار العطريَّة التي كانت تنتشرُ في الهند بكثرة، وأشهرها أشجار الياسمين، التي تكثرُ زراعتها في البيوت والحدائق العامة (Babur Nama 1970: iii, 503-513).

تحدَّث "بابر" عن الأنهار التي تنتشر في بلاد الهند، ويبدو أنه يتمتع بمعلومات جغرافية كبيرة حينما راح يصفها ويصف منابعها، فذكر أنها جميعًا تنبع من جبال الهندوكوش (مرتفعات الهمالايا)، منها ستة أنهار تنبع من منطقة "سرهند" في الشمال، وتسمّى هذه الأنهر بـ:" نهر السند، ونهر جيلم، ونهر تشان آب، ونهر راوي، ونهر ستلج، وجميعها تلتقي في إقليم الملتان من بلاد البنجاب، وتجري إلى الغرب تحت اسم "نهر السند العظيم"، ليصبَّ في بحر عُمان (بحر العرب)، وهناك أنهار أخرى كنهر "جُمنا Jumna"، ونهر الكنج، ونهر رابني، ونهر جمتي، ونهر "جاقار Gagar"، ونهر سيرو، تجتمع جميعُها لتشكِّلَ نهرَ الكنج الكبير الذي تقدِّسُهُ الهندوس، مارًّا عبر إقليم البنغال ليصبَّ في خليج البنغال (البحر المحيط) (Babur Nama 1970: iii,484)، ووصف ملك المغول أرضَ الهند بـ"الأرض المنبسطة" والغنية بثرواتها الطبيعية، وهي التي جعلت الهند أرضًا تدرُّ عوائد اقتصادية ومالية كبيرة على الدول التي تعاقبت على حكم الهند، ومنها الدول الإسلامية المختلفة، وقد أشار الملك المغولي "بابر" في مذكراته إلى أن عوائد الهند التي سيطر عليها سنة (935هـ/ 1526م)، من البحر إلى البحر، بلغت 52 كرور (أي 250 مليون روبية هندية ما تعادل 4,212,000 جنيه إسترليني)، وأن ثمانية أو تسعة كرورات (الكرور يساوي عشرة مليون روبية) تدفعها

حكومات الدول الهندوسية في الهند لخزينة الدولة الإسلامية (Babur Nama 1970: iii, 520)، وقبل أن نضع جدول عوائد الأموال العائدة لخزينة الدولة الإسلامية، الذي وثَّقه الملك المغولي في مذكراته، نتوقف عند طريقة الحساب والأعداد عند الهنود (Modes of Reckoning)، وهي طريقة ممتازة في حساب الأعداد وتنتشر في أرجاء الهند، يستخدمونها في المعاملات التجارية بينهم، وكذلك في إحصاء أموال الدولة، اللاك/ lak (ماءة الف روبية هندية)، والكرور (Acror) يساوي ماءة (لاك) (10 مليون روبية)، ومائة كرور تساوي إرب (Arb) واحد (ألف مليون روبية)، ومائة إرب تساوي (كرب Karb) واحد (مائة ألف مليون روبية)، ومائة كرب تساوي (نيل nil) واحد، ومائة (نل) تساوي (بادام Padam) واحد، ومائة بادام تساوي (سانج Sang) واحد، ويؤكِّد بابر في هذا المقام أنَّ هذه الأرقام المتداولة بين الناس والحكومات دليل على عظمة الهند الاقتصادية والمالية بسبب ما تمتلكه من ثروات طبيعية هائلة جعل منها مصدرًا وموردًا لمعظم دول العالم عبر التاريخ (Babur Nama 1970: iii, 521).

وهنا نضع جدولًا ورد في مذكرات "بابر نامه" يظهر فيه حجم عوائد الدولة المغولية في عصر الملك المغولي "بابر" من ولايات هندية مختلفة خضعت أو لم تخضع لحكم المسلمين، وجاءت العوائد على النحو الآتي (Babur Nama 1970: iii, 521):

الولايات Sarkars	كرور (10 ملايين)	لاك (مائة ألف)	تنكة (عملة فضية)
شرق نهر ستلج (بهيرا، لاهور، سيالكوت، ديبالبور)	3	33	15,989
ســرهند	1	29	31,985
هيزار فيروزا	1	30	75,174
العاصمة دهلي	3	69	50,254
ميوات	1	69	81,000
بيانا (Biana)	1	44	14,930
أكرا (Agra)		29	76,919
ميان ولايت (Midlands)	2	91	19
كواليار (Gualiar)	2	23	57,450
كالبى (Kalpi)	4	28	55,950
كانوج Qanauj)	1	36	63,358
سامبهول (Sambhal)	1	38	44,000
لاكنور وباكسار (Laknur & Baksar)	1	39	82,433
خير أباد		12	65,000
أوده وبهراج (Oude & Bahraj)	1	17	1,369
جونبور (Junpur)	4	0	88,333
كارا ومانكبور (Karra & Manikpur)	1	63	27.282
بيهار (Bihar)	4	5	60,000
ساروار (Sarwar)	1	55	17,506
ساران (Saran)	1	10	18,373
تشامباران (Champaran)	1	90	86,060
كاندالا (Kandala)		43	30,300

الولايات Sarkars	كرور (10 ملايين)	لاك (مائة ألف)	تنكة (عملة فضية)
شرق نهر ستلج (بهيرا، لاهور، سيالكوت، ديبالبور)	3	33	15,989
ســرهند	1	29	31,985
هيزار فيروزا	1	30	75,174
العاصمة دهلي	3	69	50,254
ميوات	1	69	81,000
بيانا (Biana)	1	44	14,930
أكرا (Agra)		29	76,919
ميان ولايت (Midlands)	2	91	19
كواليار (Gualiar)	2	23	57,450
كالبى (Kalpi)	4	28	55,950
كانوج (Qanauj)	1	36	63,358
سامبهول (Sambhal)	1	38	44,000
لاكنور وباكسار (Laknur & Baksar)	1	39	82,433
خير أباد		12	65,000
أوده وبهراج (Oude & Bahraj)	1	17	1,369
جونبور (Junpur)	4	0	88,333
كارا ومانكبور (Karra & Manikpur)	1	63	27.282
بيهار (Bihar)	4	5	60,000
ساروار (Sarwar)	1	55	17,506
ساران (Saran)	1	10	18,373
تشامباران (Champaran)	1	90	86,060
كاندالا (Kandala)		43	30,300
تيرهوت (Tirhut)		43	30,300
رانتبهور (Rantanbhur)		20	00,000

توقفت مذكرات "بابر" عند عادات الهنود في تقسيم السنة ومواسمها، فقسَّمها إلى ثلاثة مواسم؛ أوَّلها: موسم الصيف والحر الشديد، وهي: (chait, Baisakh, Jeth, Asarh)، وثانيها : موسم الأمطار،وهي: (Sawan, Bhadon, Kuar, Katik)، وثالثها: موسم البرد، وهي: (Aghan, Pus, Magh, Phalgun)، وجاءت على أسماء الأيام عند الهنود، وهي: (السبت (Sarichar)، الأحد (Rabi Bar)، الاثنين (Somwar)، الثلاثاء (Mangalwar)، الأربعاء (Budhbar)، الخميس (Brihaspatbar)، الجمعة (Shukerbar)، وقسَّم الهنود الوقت، في النهار والليل، إلى أربعة وعشرين قسمًا (ساعة)، والساعة إلى ستين قسمًا (دقيقة)، واليوم والليلة إلى 1440 ثانية، وقسَّموا النهار إلى أربعة اقسام والليل إلى أربعة (Babur Nama 1970: iii, 516).

وبيَّنت "بابر" عبر مذكراته وحدات الأوزان التي كان يتعامل بها الهنود، سواء بالذهب أو الفضَّة أو غيرها، وقرَّر أنَّ هناك نظامًا دقيقًا في وصف وحدة الأوزان في الهند؛ حيث جاءت على النحو الآتي: 8 راتي تعادل ماشه واحدة، و4 ماشات تعادل تنكة واحدة وتعادل 32 راتيًا، و5 ماشات تعادل واحد مثقال، وتعادل 40 راتيًا، و12 ماشا تعادل

تولا (Tola) واحدة، وتعادل 96 راتيًا، و14 تولا تعادل سيرًا واحدًا، و40 سيرًا تعادل مانبان واحدًا، و12 مانبان تعادل مانيًا واحدًا (Babur Nama 1970: iii, 517-518). وقد أفرد المؤرِّخ الندوي وصفًا دقيقًا لموازين النقود وغيرها في الهند الإسلامية: ذهبية ويسمونها "تنكة" ووزنها تولا (Tola) واحدة، والفضية ويسمونها تنكة أيضًا ووزنها تولا واحدة، والنحاسية ويسمونها "جيتل" ووزنها تولا واحدة، كما تحدَّث عن نقود الدولة المغولية في عصر الملك "بابر" وبعده، وأشهرها الأشرفي الذهبي، ووزنها مائة تولا، وثمن الواحدة منها ألف روبية إنجليزية، وهناك الروبية، وهي سكَّة فضية تختلف أحجامها من منطقة إلى أخرى، وأكثرها شهرة تزن إحدى عشرة ماشة، وأربع ريتي، والبيسة، وهي نحاسية تزن تولا واحدة وثماني ماشات وسبع ريتي، وثمنها قريب من "دام "واحد، والدام سكَّة نحاسية تزن تولا واحدة، والأوزان "رتي" تعادل 121 ملغمًا ونصف، والماشة "8 رتي" تعادل 11 غرامًا و664 ملغمًا، والـ"سير" 80 توله وتعادل 933 غرامًا و 120 ملغمًا، والـ"منّ"، 40 سيرًا وتعادل 360 غرامًا و37 ملغمًا (الندوي2001: 326–327).

نتائج الدراسة:

- تُعَدُّ مذكرات الملك المغولي "ظهير الدين محمد بابر" المشهورة بـ"بابرنامه" من المصادر التاريخية الفريدة في تاريخ شعوب آسيا الوسطى وأفغانستان والهند، في القرن السادس عشر الميلادي، وأداة مهمَّة لفهم الواقع الجغرافي والسكاني لمدن وحياة شعوب بلاد ما وراء النهر (أوزبكستان) وكابول وقندهار وغزنة (أفغانستان)، ولاهور ودلهي والكجرات (الهند وباكستان)، وهو ما كشف عن عراقة تلك المدن وواقعها ودورها في ازدهار المنطقة، وقد تفوَّقت مذكرات "بابر" على العديد من كتابات المؤرِّخين والجغرافيين الذين عنوا بتاريخ تلك البلدان وشعوبها، في فترات سابقة ولاحقة لفترة المذكرات؛ لتبرزَ قيمة هذه المذكرات بوصفها سِفرًا كبيرًا في حقل دراسة الجغرافية التاريخية.
- أبدع الملك بابر حين لم يغب عن ذهنه تدوين أسماء السلاطين الذين تعاقبوا على حكم أغلب المدن التي وصفها بابر في مذكراته، كالأسرة السامانية، والأسرة الغزنوية، والأسرة الغورية، والأسرة الخلجية الأفغانية، والأسرة اللودية، والأسرة البهمنية، وصولًا إلى عهد الملك "بابر" الذي بدأ في حكم الهند سنة 935هـ/ 1526م.
- أكَّدت مذكرات الملك "بابر" مظاهر العمران والتطوُّر الحضاري لمدن بلاد ما وراء النهر وأفغانستان والهند، وأبرز تلك المظاهر تشييد القلاع والحصون والمساجد والحدائق والطرقات، وأعظم تلك الحصون والقلاع قلعة سمرقند، التي أسهب "بابر" في وصفها وصفًا أحاط بكل تفاصيلها، وكذلك انتشار الحدائق الغنّاء التي أضحت معلمًا بارزًا في حياة تلك المدن، وكان أبرز تلك الحدائق في مدينة سمرقند، مثل حديقة "جار باغ"، و"باغ جُنار"، و" باغ شمال"، و"باغ بهشت"؛ أي روضة الجنة، علمًا أنَّ كلمة باغ الفارسية تعني روضة أو حديقة.
- بيَّنت مذكرات "بابر" واقع الحياة الحَيَوانية والنباتية في تلك المدن التي جاء على وصفها، حتى لنجده لا يترك صغيرة إلّا ويقف عليها، فتحدَّث عن فاكهة مدينة "مرغينان"، كالبرقوق والرمان واللوز، كما أشار إلى الطيور والغزلان، أما مدينة "خجنده" ففيها الثعابين والغزلان البيضاء النادرة والديكة والأرانب والعصافير بأنواعها، كما ذكر شمام مدينة "أخسي" وعدَّهُ من أشهر أنواع الشمام وأطيبها في تلك البلاد، وتناول بالذكر ما ينتشر في مدينة سمرقند من حَيَوانات وفاكهة، مثل الغزلان والأرانب، أما فاكهة سمرقند كالرمان والتفاح والعنب والشمام فتفاحها مشهور باسم "سيب سمرقند"، وعنبها معروف باسم "صاحب سمرقند"، وأشار إلى مشمش مدينة كابول ورمانها

وتفاحها وكمثراها وبرقوقها وخوخها وبرتقالها، وعن حَيَوانات الهند وفاكهتها تحدث عن الفيلة والجواميس والطواويس والطيور، وذكر أنَّ المانجو أهم فاكهتها.

- حرصت مذكرات الملك "بابر" وهي تصف مدن بلاد ما وراء النهر وأفغانستان والهند على ذكر العديد من مشاهير العلماء والشعراء، وهم الذين شهدت لهم الحضارة الإسلامية بالتميُّز والإبداع، وأغلبهم ينتسبون إلى مدن "أوزبكستان"، منهم: العلامة أبو منصور الماتردي السمرقندي، أحد أعلام الفقه الحنفي في حضارة المسلمين، والفقيه العلامة برهان الدين المرغيناني، صاحب كتاب الهداية في الفقه الحنفي، والعلامة خواجه إسماعيل البخاري، صاحب كتاب الصحيح، والشاعر أثير الدين الأخسيتكي، والشاعر مير علي شيرواني، وهما من كبار شعراء الأتراك.
- أدَّت المدن التي وصفتها مذكرات الملك دورًا بارزًا في تطوُّر حركة التجارة الدولية وازدهارها بين الصين وآسيا الوسطى والبلاد العربية وأوروبا، وأهم المدن التي شكَّلت مركزًا تجاريًّا مهمًّا على طريق الحرير مدينة سمرقند ومدينة أنديجان ومدينة خُجنده ومدينة فرغانة، أما مدينة سمرقند فقد تبوَّأت مرتبة متقدِّمة في ازدهار التجارة من بين جميع المدن الأخرى؛ مما أدى إلى تطوُّرها حضاريًّا؛ إذ انتشرت فيها الأسواق والمطاعم والمخابز والطرقات، كما انتشرت الصناعات، من مثل صناعة الورق، الذي عَدَّهُ "بابر" من أجود أنواع الورق في العالم يوم ذاك، وكشفت لنا المذكرات عن طرق كابول وقندهار باتجاه الأسواق في الهند، أو من الأسواق الهندية عبر كابول وقندهار إلى الصين وبلاد ما وراء النهر وأوروبا؛ حيث كان هناك طريقان تجاريان، هما: طريق كابول وطريق قندهار، وهو ما جعل أسواق كابول مزدهرة وتعجُّ بالأنشطة التجارية.
- تحدثت المذكرات عن الثروة الاقتصادية والمالية التي كانت تمتلكها الهند في عصورها المختلفة بسبب كثرة الموارد الطبيعية كالأنهار واعتدال مُناخها وخصوبة تربتها واستقرارها السياسي إلى حد كبير؛ حيث بلغت جباية الدولة المغولية من بلاد الهند سنة (935هـ/ 1526م)؛ أي في عهد الملك "بابر" نحو (52 كرور)؛ أي ما يعادل (250 روبيه هندية) وما يعادل (4,212,000) جنيه إسترليني، ونظرة إلى الأعداد المنتشرة في الهند وطريقتهم في حسابها يتبيَّن حجم الثروة التي تتمتع بها الهند.
- كان لمذكرات الملك "بابر" دورًا مهمًّا في التعريف بحياة شعوب بلاد ما وراء النهر وأفغانستان والهند، من حيث العادات والتقاليد الاجتماعية وتقاليدهم في الأوزان والأسعار ومعاملة الناس بالتواريخ والأيام، وضبطها ضبطًا دقيقًا محكمًا، وعن الأعراق والأجناس واللغات المنتشرة في تلك المدن.

أهم مدن أوزبكستان

"MAGELLAN Geographix (800) 929-4627 www.maps.com"

أهم مدن أفغانستان

Description of the Cities and the Lives of the Peoples in Transoxiana, Kabul, Ghazni, and India in the Tenth Century AH / Sixteenth Century AD (The "Babur Nama" as a Source): A Study in Historical Geography

Ahmed M. Al Jawarneh ✉*

ABSTRACT

The memoirs of the Mongol king Babur are among the most prominent historical and cultural sources for the peoples of Central Asia and the Indian subcontinent in the fifteenth and sixteenth centuries AD. The memoirs are in three parts, the first in Ferghana (Uzbekistan), covering 899 AH/1493 AD - 909 AH/1503 AD, the second in Kabul (Afghanistan), covering 910 AH/1504 AD - 931 AH/1524 AD, and the third in Delhi (India and Pakistan) covering 932 AH/1525 AD - 936 AH/1529 AD. Babur began writing his memoirs after 934 AH/1527 AD, that is, one year after his occupation of India and his establishment of the Mughal (Timurid) state on the throne of Delhi and thirty years since the start of his rule in Ferghana in 900 AH/1494 AD. What concerns us in this study is shedding light on Babur's description of cities and the lives of peoples in Central Asia, Afghanistan, Pakistan, and India in the sixteenth century. This study seeks to address many issues, foremost among them: the nature of the cities that spread in Transoxiana, Afghanistan, and India, how those cities were cared for by the Islamic families who established their rule prior to the study period, and the importance of Babur's memoirs.

Keywords: *Babur, India, Uzbekistan, Mongols, Samarkand, Kandahar***.**

*Department of History and Civilization, Faculty of Arts, Yarmouk University, Jordan.
✉ Corresponding author: jawarneh60@gmail.com

Received on 27/10/2024 and accepted for publication on 12/3/2025.

المصادر والمراجع العربية

التيموري، ظهير الدين محمد بابر (2002)؛ تاريخ بابر: بابر نامه وقائع : فرغانه – كابل – الهند، ج 1، ترجمة ماجدة مخلوف، مصر: دار الأفاق العربية.

الجوارنة، أحمد (2024)؛ *مصادر تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية، الهند، باكستان، أفغانستان، بنغلادش، كشمير*، عمان: دار الخليج للنشر والتوزيع.

خواندمير، محمد بن خاوندشاه (ت 903هـ/ 1497م) (1988)؛ *روضة الصفا في سيرة الأنبياء والملوك والخلفا تاريخ الدولة الطاهرية والصفارية والسامانية وآل بويه والاسماعيلية والملاحدة*، من سلسلة عيون تراثنا الإسلامي، ترجمه عن الفارسية أحمد عبد القادر الشاذلي، راجعه السباعي محمد السباعي، القاهرة: دار المصرية للكتاب والنشر والتوزيع.

الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت 748هـ/1374م) (1984)؛ *سِيَر أعلام النبلاء*، حقَّقه شعيب الأرناؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة.

الزِّرِكلي، خير الدين (ت 1976م) (2002)؛ *الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين المستشرقين*، بيروت: دار العلم للملايين.

سامي، شمس الدين (1306هـ/ 1888م) (1306هـ)؛ *قاموس الأعلام، تاريخ وجغرافيا*، 6 مجلدات، إستانبول: مهران مطبعه سي.

المرغيناني، برهان الدين أبو الحسن علي بن أبي بكر (593هـ/ 1197م) (2019)؛ *الهداية شرح نهاية المبتدي*، 7 مجلدات، حقَّقه سائد بكداش، المدينة المنوَّرة: دار السراج.

المغربي، علي عبد الفتاح (1995)؛ *الفرق الكلامية الإسلامية: مدخل ودراسة*، سلسلة دراسات تكلامية، القاهرة: مكتبة وهبة.

الندوي، عبد الحي الحسني (2001)؛ *الهند جنَّة المشرق ومطلع النور المُشرق*، الهند: نشر مجلس الهند للروابط الثقافية.

REFERENCES

Erskine, William (1974); *A History of India: Under the two first Sovereigns of the House of Taimur, Báber and Hubáyun*, Karachi: Oxford University Prees.

Geonames.org

Hamdulláh Mustawfí-i-Qazwíní (1913); *The Ta'ríkh-i-guzída; or, "Select history" compiled in A.H. 730 (A.D. 1330), and now reproduced in facsimile from a manuscript dated A.H. 857 (A.D. 1453),* Edward G. Browne, R. A. Nicholson trans. and eds., Leyden: E. J. Brill, London. Luzac.

Jawāranah, Ahmad (2024); *Sources of Muslim History in the Indian Sub-Continent: India, Pakistan, Afghanistan, Bangladesh and Kashmer*, Amman: Dār al-Khalīj lil-Nashr wa-al-Tawzī‘.

Khawandamir, Muḥammad ibn Khawandshah (d. 903 A.H./ 1497 A.D.) (1988); *Rawḍat al-Ṣafā in the Biography of the Prophets, Kings and Caliphs, Tārīkh al-Dawlah al-Ṭāhirīyah wa-al-Ṣaffārīyah wa-al-Samānīyah wa-Āl Buayh wa-al-Ismā‘īlīyah wa-al-Malāḥidah*, translated from Persian to Arabic by Ahmad ‘Abd al-Qādir al-Shadhily, Raja‘ahu al-Sibā‘ī Muḥammad al-Sibā‘ī, Cairo: Dār al-Maṣrīyah lil-Kitāb wa-al-Nashr wa-al-Tawzī‘.

Lane-Poole, Stanley (1899); *Rulers of India, Bábr*, Oxford: Clarendon Press.

Lane-Poole, Stanley (1976); *The Mohammedan Dynasties: Chronological and Genealogical Tables with Historical Introductions*, Westminster: Archibald Constable.

al-Maghrabī, ‘Alī ‘Abd al-Fattāḥ (1995); *Islamic Theological Sects: an Introduction and Study*, Cairo: Maktabat Wahbah.

al-Marghinānī, Burhān al-Dīn Abū al-Ḥasan ‘Alī ibn Abī Bakr (d. 593 A.H./ 1197 A.D.) (2019); *al-Hidāyah Sharḥ Nihāyat al-Mubtadī’*, 7 vols., Sā’id Bakdash ed., al-Madīnah al-Munawwarah: Dār al-Sarāj.

al-Nadawī, ‘Abd al-Ḥay al-Ḥusaynī (2001); India, the Paradise of the East and the Rise of the Bright Light, India: Majlis al-Hind lil-Rawābiṭ al-Thaqāfīyah.

Ovesen, J. (1984); “On the Cultural Heritage of the Pashai”. *Anthropos*, vol. 79, H. 4./6., Pp. 397-407.

Samy, Shams al-Dīn (1888); *Dictionary of Distinguished People, Geography and History*, 6 vols., Istanbul: Mahran Maṭba‘ah.

al-Taymūrī, Ẓahīr al-Dīn Babur (2002); *The History of Babur: Babur Nāmah (The Chronicles of Babir), On the Throne of Ferghana, Cābel, India*, 1 vol., translated by Mājidah Makhlūf, Cairo: Dār al-Āfāq al-‘Arabīyah.

Timur Lank (1830); “*Mulfuzat Timury” or “Autobiographical memoirs of the Moghal Emperor “Timur”.* Translated into Persian by Abu Talib Hussyny, and Translated into English by Major Charles Stewart, Holborn, p.v.

al-Zirkilī, Khayr al-Dīn (2002); *al-A‘lām: Qāmūs Tarājim li-Ashhar al-Rijāl wa-al-Nisā’ min al-‘Arab wa-al-Musta‘ribīn wa-al-Mustashriqīn*, 8 vols., Beirut: Dār al-‘Ilm lil-Malāyīn, 15th ed.